مقدمة

مثل فرقة موسيقية وفية تُحيي تراث فنانها، لا تهدف هذه السلسلة إلى تغطية أشهر أعمال الفلسفة فحسب، بل وكامل أرشيفها أيضًا. وقد انطلق المشروع من قناعة مفادها أننا لن نفهم تاريخ الفلسفة إلا إذا سردناه كحكاية متواصلة، بدلًا من القفز من محطة بارزة إلى أخرى. كما يتيح لي هذا النهج مناقشة الأفكار والحجج المثيرة للاهتمام الواردة في كتابات الفلاسفة الأقل شهرة. وقد بدأت في تطبيق شعار «بلا ثغرات» في المجلد الأول من هذه السلسلة الذي بعنوان: «الفلسفة الكلاسيكية Classical Philosophy». لا يلزمك قراءته قبل هذا الكتاب، وإن كان سيفيدك (أشير إليه أحيانًا في الهوامش). تناول المجلد الأول فصولًا لمواضيع غير تقليدية مثل كتابات أبقراط وتلاميذ أفلاطون وأرسطو. ومع ذلك، فقد قضيت جزءًا كبيرًا منه في مناقشة عملاقين، أفلاطون وأرسطو، وهما من الأسماء الثابتة في قوائم القراءة الجامعية في جميع أنحاء العالم. أما هذا المجلد فينصب تركيزه على سد الثغرات في تلك الصورة التاريخية.

ينقسم هذا الكتاب إلى ثلاثة أجزاء، يزداد كل جزء منهم غرابةً عن سابقه: الفلسفة الهلنستية، والفلسفة المتأخرة في العصور الوثنية، والفلسفة المسيحية القديمة. لم تصبح المدارس الهلنستية -الكلبيون، القورينيون، الرواقيون، الشكوكيين، الأبيقوريون- محل اهتمام جاد من مؤرخي الفلسفة المحترفين إلا مؤخرًا نسبيًّا. أما الآن فهي مغطاة بشكل جيد في الأدبيات الثانوية. ومع ذلك، يمكن للمرء بسهولة أن يحصل على شهادة في الفلسفة من معظم الجامعات دون أن يُطلب منه دراسة أي شيء عن الحقبة الهلنستية. ولا يزال من النادر أن تقدم أقسام الفلسفة مقررات دراسية عن الأفلاطونية المحدثة،

وهي التقليد المهيمن في الفلسفة الوثنية المتأخرة. أما بالنسبة للجزء الثالث من هذا الكتاب، فقد يفاجأ حتى المتخصصون في الفلسفة القديمة عند رؤيتهم الحيز الكبير الذي خصصته للمفكرين المسيحيين. ولكنني آمل، بل وأتوقع، أن يتزايد إدراج الفكر المسيحي القديم في تصورنا للفلسفة القديمة خلال العقود القادمة، تمامًا كما أُدرجت الفلسفة الهلنستية والأفلاطونية المحدثة في هذا المجال. إذ من سمات المؤرخين أنهم دائمًا في سعي وراء نصوص جديدة للتفكير والتأمل، ونصوص المسيحيين تمثل آخر الحدود غير المستكشفة في الفلسفة القديمة.لكن عليك ألا تخطئ الفهم. فالشخصيات التي يغطيها هذا المجلد قد تكون أدنى شهرة من أفلاطون وأرسطو، لكن بعضهم ليس أدنى منهما **كثيرًا**. فهناك على الأقل عملاقان في هذا المجلد أيضًا، وهما أفلوطين، الذي يُنسب إليه عادة تأسيس الأفلاطونية المحدثة، وأوغسطين، الذي أظن أنه غني عن التعريف. ونظرًا لأهميتهما فقد خصصت فصولًا عديدة لمختلف جوانب تفكيرهما. وفي إطار التقليد الهلنستي نجد بضعة أسماء أخرى مألوفة (رغم أن ذلك ربما يعتمد على البيئة الثقافية)، مثل أبيقور، ومن يُطلَق عليهم «الرواقيون الرومان»: سينيكا، وإبيكتيتوس، وماركوس أوريليوس. وهؤلاء يحظون بتقدير جمهور واسع من القراء لأسلوبهم الكتابي القريب من القارئ وتعليماتهم الأخلاقية الجذابة. وثمة روماني آخر لا تزال شهرته ساطعة هو شيشرون، وإن كانت شهرته الدائمة ترتبط أكثر بمحاولاته الفاشلة للإبقاء على الجمهورية الرومانية وليس بالأفكار الفلسفية التي يتناولها هذا الكتاب.

سوف نتمكن من فهم هذه الشخصيات المحورية فهمًا أعمق بكثير عندما نتعرف على المفكرين الثانويين (هكذا يُعَدّون) الذين أثروا فيهم وفسّروا أعمالهم وتفاعلوا معهم. لا أدّعي أنني خصصت مناقشة شاملة لكل فيلسوف جدير بالاهتمام بين عصر الإسكندر الأكبر وسقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب، وهي الفترة الزمنية التي يغطيها هذا الكتاب تقريبًا. وقبل أن يبادر النقّاد غير المتسامحين بالنقد، أستطيع القول إنه كان بإمكاني تخصيص فصول مستقلة لفلاسفة مثل بوسيدونيوس أوفيلوديموس أو ماريوس فيكتورينوس بدلًا من مجرد الإشارة إليهم عرضًا. ومع ذلك، أنا واثق من أن

هذا المجلد يقدّم نظرة أكثر تفصيلًا لهذه الفترة مقارنة بأي كتاب آخر موجّه للقارئ العام. وآمل أن يجعل هذا المستوى من التفصيل هذا الكتاب مثيرًا للاهتمام حتى للقراء الذين يمتلكون معرفة جيدة بالفلسفة القديمة المتأخرة. إذ قلة هم الذين سيجدون جميع الشخصيات التي سنتناولها مألوفة لديهم من قبل. وأنا شخصيًّا لم أكن على علم بجميعها قبل أن أبدأ كتابة هذا العمل، رغم أن فلسفة العصر القديم المتأخر تمثل أحد شواغلي البحثية الرئيسة.لكن قبل الشروع في استعراض شخصيات هذا السرد الفلسفي؛ دعوني أتناول بعض التيمات [الموضوعات] الفلسفية التي ستتكرر خلال قصتنا، تفاديًا لضياع الرؤية الكلية في غمار التفاصيل الجزئية. وأنسب نقطة للبدء هي الأخلاق. كما سأوضح في الفصل الأول، فإن المدارس الهلنستية كانت تسير على نهج سقراط في اعتقاده أن الفلسفة تدور حول تعلم كيفية العيش. فقد رأى العديد من المفكرين الذين سنتناولهم أن الحياة المثلى يجب أن تكون بالكامل تحت إرادتنا، بمنأى عن تقلبات القدَر. وهذا ينطبق حتى على القائلين بمذهب اللذة مثل الأبيقوريين والقورينيين. وفي العصور القديمة كان ينظر إلى مفكر أخلاقي صارم مثل أرسطو على أنه ضعيف العقل في كثير من الأحيان لمجرد إقراره بأن السعادة قد تتطلب امتلاك أسرة سعيدة وأصدقاء طيبين وبعض المال، إلى جانب الفضيلة. وعندما بدأ التشكيك يظهر أخيرًا في مثالية الكمال الفردي الذي لا يُقهَر، لم يكن ذلك بسبب تخلي الأخلاقيين عن مواقفهم الصارمة، بل لأسباب لاهوتية. لقد حكم أوغسطين على الفلاسفة الهلينيين بالكِبْر لجرأتهم على الاعتقاد بإمكانية بلوغ الفضيلة الكاملة دون عون خارجي. فاليد المُعينة التي يحتاجونها لم تكن لتأتي من أسرة أو أصدقاء أو ثروة، بل من الله.تمثل العلاقة بين الإنسان والإله موضوعًا متكررًا آخر في هذا الكتاب. ومن البدهي أن هذه القضية كانت محورية بالنسبة للفلاسفة المسيحيين. كما كانت أيضًا شاغلًا دائمًا للرواقيين والأفلاطونيين الجدد، وحتى للأبيقوريين، وإن كان هدف هؤلاء إثبات ألَّا علاقة تُذكَر (أو تستحق القلق) بيننا وبين الآلهة. سعت جميع هذه الجماعات إلى التوفيق بين المعتقدات الدينية الهلنستية والمذاهب الفلسفية. غير أن هذا التحدي كان يختلف اختلافًا جذريًّا اعتمادًا على ما إذا كنت، مثلًا، من الرواقيين الأوائل أم من الأفلاطونيين

المحدثين المتأخرين. وهذا يعود إلى أن الرؤى الميتافيزيقية لهذه المدارس كانت متضادة في حد ذاتها. وعلى نحو عام، تميزت الفترة الهلنستية بالمادية الفلسفية، حيث أنكر كل من الرواقيين والأبيقوريين وجود أي كيانات غير مادية. وتمثل هذه النقلة تحولًا دراماتيكيًا في تاريخ الفلسفة، وكأن الإسكندر الأكبر قد أرسل مذكرة إلى جميع الفلاسفة يخبرهم فيها أن الجواهر غير المادية لم تعد مقبولة. بدأ هذا الإجماع المادي بالانهيار تقريبًا في الوقت الذي فشل فيه شيشرون وحلفاؤه في منع سقوط الجمهورية الرومانية. خلال القرنين الأول قبل الميلاد والأول الميلادي بدأت الأفلاطونية تعود للظهور. وسرعان ما اقتنع جميع الفلاسفة اقتناعًا تامًّا بوجود كيانات غير مادية.إن التزام الأفلاطونيين والمسيحيين بالإيمان بوجود أشياء لا يمكن رؤيتها أو لمسها يثير إشكالية واضحة: كيف يمكننا معرفة مثل هذه الأشياء؟ كثيرًا ما سعى الفلاسفة اليونانيون الأوائل إلى تأسيس المعرفة على الخبرة الحسية. كان أرسطو أحد الأمثلة على ذلك، بل شدد أبيقور على هذا المبدأ بقوة. لكن بالنسبة للأفلاطونيين المحدثين واللاهوتيين الفلاسفة المسيحيين، فإن أهم الأمور على الإطلاق هي تلك التي لا يمكن إدراكها بالحواس. وهكذا قاد هؤلاء المفكرين إلى التأمل في طبيعة التأمل ذاته، في محاولة لإظهار أن البشر قادرون على نوع من المعرفة يفوق المعرفة المستمدة من الإحساس. ومع ذلك، فقد أدركوا حدود حتى هذه المعرفة العليا. ظل المبدأ الأسمى -سواء كان (الواحد) غير القابل للمعرفة عند أفلوطين، أم (الذي لا يوصف) الأكثر غموضًا عند داماسكيوس، أو الله الخالق عند اليهود والمسيحيين- يُنظر إليه على أنه يتجاوز حدود فهمنا. وقد كانت هذه نسخة أكثر لاهوتية لمشكلة ظلت تؤرق الفلاسفة لفترة طويلة. إحدى المدارس الهلنستية الرئيسية عُرفت باسم يكاد يُعرب عن نفسه «الشكوكية». فقد عمل الشكوكيون على تقويض ادعاءات المعرفة اليقينية التي قدمها خصومهم، الرواقيون والأبيقوريون. وقد بقيت الاستراتيجيات الشكية وعادات التفكير الشكي حاضرة في أعمال مؤلفين كان الشكوكيون أنفسهم يعتبرونهم «دوغمائيين [عقائديين]»، على رأس هؤلاء أفلوطين وأوغسطين.هكذا اتسمت الفلسفة القديمة المتأخرة بسؤال: «ما الذي يمكننا معرفته؟ وكيف نعرفه؟» بقدر ما اتسمت بسؤال «كيف ينبغي أن نعيش؟». هذا الانشغال بمدى

معرفتنا ومصادرها ظهر أيضًا في التخصصات العلمية، وخاصة في مجال الطب. فقد تناولتُ في المجلد السابق، كما ذكرت أعلاه، الإسهامات الفلسفية لمجموعة نصوص أبقراط. أما في هذا المجلد، كما تقول لوسي Lucy في القصة المصورة «بينوتس Pea-nuts»، فالأطباء ما زالوا حاضرين. إذ لن أناقش فقط المدارس الطبية ومجادلاتها الإبستمولوجية المنطقية، ولكن أيضًا أعظم أطباء العصور القديمة، جالينوس. كما سنتطرق أيضًا إلى علم النجوم، مع التركيز على أشهر ممثليه، بطليموس. أدرجت هذه الموضوعات كجزء من منهج «بلا ثغرات». إن تاريخيْ الفلسفة القديمة والعلم القديم متشابكان بإحكام، إلى درجة أن دراسة أحدهما على نحوٍ شامل تتطلب على الأقل إلقاء نظرة سريعة على الآخر. ويبدو هذا التشابك جليًّا في حالات الطب وعلم الفلك والتنجيم، حيث نرى جالينوس وبطليموس يستندان صراحة إلى مصادر فلسفية مثل أفلاطون وأرسطو والرواقيين.إذن في هذا الكتاب سنجد إسهامات في المجالات الثلاثة الأكثر مركزية في الفلسفة: الأخلاق والميتافيزيقا والإبستمولوجيا. كما سيكون لنا جولات في فروع أخرى مثل المنطق وفلسفة اللغة ونظرية العقل. وسيجد فلاسفة الدين بالطبع العديد مما يلامس القضايا التي تهمهم. أما فيما يخص الفلسفة السياسية، فعلى الرغم من أن هذا الكتاب يستند عمومًا إلى نصوص سلسلة البودكاست «تاريخ الفلسفة History of Philosophy» الخاصة بي، إلا أنني أضفت فصلًا عن الفكر السياسي القديم المتأخر، يركز على القياس الشائع آنذاك بين الأسرة والدولة[1]. وهذا أمدّني بفرصة للحديث عن النساء والعبيد، وهما فئتان غالبًا ما نغفلهما عند التفكير في الفلسفة في العالم القديم. بالإضافة إلى هذا النقاش العام حول مواقف الفلاسفة من النساء، ستجد أيضًا في هذا الكتاب الذي بين يديك مناقشة لعدد من الشخصيات

(1) يوجد فصل إضافي ثان يتناول جالينوس، الذي غطيناه في سلسلة البودكاست من خلال مقابلة مع جيمس هانكينسون James Hankinson. وبشكل عام، أنصح بهذه المقابلات لأنها تضيف عمقًا إضافيًّا ومنظورًا مختلفًا للمادة التي في الكتاب. على سبيل المثال، يمكنك الاستماع إلى المزيد عن الفلسفة السياسية القديمة في المقابلات مع تونـي لونغ Tony Long ودومينيك أوميرا Dominic O'Meara، وعن الجماليات القديمة في حلقة تضم آن شيبرد Anne Sheppard. وجميع المقابلات، إلى جانب حلقات البودكاست الأصلية، متاحة مجانًا عبر الإنترنت على موقع: http://www.his-toryofphilosophy.net.

النسائية. ومن المؤسف أنه سيكون من المبالغة ادعاء أن النساء أدَّيْن دورًا رئيسًا في أي مرحلة من مراحل الفلسفة القديمة. ولكي يتحقق ذلك، كان علينا فعليًّا أن ننتظر الفرص الأكبر التي أتيحت لهن في أوروبا الحديثة المبكرة. لكننا سنتعرف على شخصيات مثل الكلبية هيبارشيا، والشهيدة الوثنية هيباتيا، وعدد من النساء المسيحيات، مثل ماكرينا الكبادوكية ومونيكا والدة القديس أوغسطين الموقَّرة.مهما بلغ منهجنا التاريخي والموضوعاتي من شمول، لا مفر من حقيقة أن السجل التاريخي للفترة التي سنناقشها بعيد عن أن يكون خاليًا من الثغرات. فعند الحديث عن الرواقيين الأوائل والشكوكيين، نعود مرة أخرى إلى التنقيب في شذرات متفرقة وأخبار منحازة كتبها مؤلفون لاحقون. كما هو الحال مع مفكري ما قبل سقراط. إلا أن الأمور تتحسن تحسنًا ملحوظًا مع الرواقيين الرومان وفي العصر القديم المتأخر. ولكن باستثناء أفلوطين، لم يخلف أي من الكُتّاب الذين نناقشهم في هذا المجلد مجموعة كبيرة من الأعمال المحفوظة بالكامل. على الجانب الآخر، لدينا كُتّاب مثل جالينوس وأوغسطين تركوا عددًا هائلًا من النصوص المحفوظة لدرجة يصعب معها الشكوى. إن وضعنا يشبه وضع ديوجانس الكلبي عندما قُدمت له قطعة كبيرة من اللحم النيء: هناك الكثير لنغوص فيه بأسناننا. فمن دون إطالة، دعونا ننتقل إلى المجلد الثاني من «تاريخ الفلسفة» بلا ثغرات.